فعلامَ يبقى ذكرهُ بقلوبنا حيًّا ولقياهُ أعزَّ مُنانا
وعلامَ تشعر بالخلود نفوسنا وتودُّ في دار البقاء مكانا
واذا جحدنا العلَّة الأُولى لنا أنّى نعلّل هذه الاكوانا
الله اكبر كيف نطفئ نورهُ ونسير في هذا الورى عميانا
الله اكبر ان سرَّ وجودهِ ووجودنا قد حيّر الاذهانا
ولئن تبتَّ افهامنا عن سرّهِ فلقد بدتْ آياتهُ إعلانا
فهي المنار لمن اراد هدايةً وهي اللسان لمن اراد بيانا
والنفس أعطيت الخلود كرامةً فعلامَ تُلبسها الفناء هوانا

السلطان سليم العثماني والشعر العربيّ

قرأت في مجلة الآثار للفاضل المحقق عيسى افندي اسكندر المعلوف هذين البيتين وهما

الملك لله من يظفر بنيل منىً يردُدهُ قسرًا ويضمن بعدهُ الدَّرَكا
لو كان لي او لغيري قيد انملةٍ فوق البسيطة كان الامرُ مشتركا

منسوبين لساكن الجنان السلطان سليم العثماني الاول فاتح البلاد العربية فلحظت ان الكاتب تابع فيهما قول الذين ظنوا ان السلطان كتب هذين البيتين عند ما فتح مصر من مقولهِ لا من منقولهِ مع اني كنت رأيتهما في ديوان المعرّي لزوم ما لا يلزم من جملة قصيدة من البحر والروي

ويظهر ان الفاضل المحقق احمد بك تيمور لحظ ما لحظتهُ واشار الى ذلك في العدد الاخير من المقتطف مشفوعًا بكونهِ وان لم يكن السلطان بأبي عذرة هذين البيتين فإن اختيارهُ لهما في مثل هذا المقام لمن ادل الدلائل على عقلهِ وفضلهِ ورسوخهِ في الادب ووفرة حظهِ من لغة العرب . وانا اضيف الى هذا القول ان ظن بعضهم كون البيتين هما من قريحة السلطان مبنيٌّ على ما كان متحققًا بهِ رحمهُ الله من ملكة الادب العربيّ الى الغاية البعيدة وما كان سائرًا عنهُ من الشعر الجزل العالي الطبقة المستولي على آماد الاجادة بحيث لم يكن ليستكثر عليهِ النظم الذي يلتبس بنظم المعريّ

وفي هذا الصيف زرت مدينة حماه فدلّني بعض السادة الكيلانية الثراة على الدار التي يقال ان السلطان سليماً نزل بها عند مروره بحماه فاتحاً للديار الشامية وعلى الغرفة التي بات فيها وهي غرفة سنيّة ذات طنف مشرف على العاصي وانشدني بعضهم بيتين يقال انهُ نظمهما بومئذٍ وهما

بني جيلان هُنئتم بعيش ارى من دونهِ السبع الطباقا
اطاع لديكمُ العاصي ولمّا تشرّف بالجوار حلا وراقا

وانت ترى على هذا الشعر من سمحة الكلام الملوكي وغضاضة الادب السلطاني ولاسيما في قوله « تشرّف بالجوار » ما يصحح نسبة هذين البيتين الى ذلك السلطان الاديب والفاتح العظيم فان للملوك ولاسيما بني عثمان من الآداب العالية الغالية في الحديث والكتابة ما لا تخفى دباجتهُ

ومما قرأتهُ ولا اتذكر الآن بالتمام المظنة ليعد العهد بها ان السلطان المشار اليهِ كان مرةً يتنزّه في البوسفور فبينما هو يسير في قاربهِ اذ مرَّ بالقرب منهُ رجل من علماء العراق راكباً الى اسكدار فحانت من السلطان التفاتة فرآهُ وعلم من زيهِ وعمامتهِ انهُ عراقيّ المنبت عربيّ اللغة فخاطبهُ بصوت عالٍ متمثلاً ببيت الطغرائي البغدادي من لامية العجم وهو

فيمَ اقتحامك لجّ البحر تركبهُ وانت تكفيك منهُ مُصّة الوشلِ

وكان العراقيّ حاضر النادرة فاجابهُ بديهاً ببيت آخر من القصيدة نفسها وهو

أُريدُ بسطة كفٍ استعين بها على قضاء حقوقٍ للعُلى قِبَلي

فاستحسن السلطان بديهتهُ وفي اليوم التالي استدعاهُ واجازهُ وامر بقضاء حاجاتهِ كلها

واتذكر ايضاً انني وقفت على كتاب باللغة الفرنسية يقع في مجلد كبير حاوٍ تراجم الكتّابين والفضلاء من سلاطين آل عثمان آتٍ على ذكر بعض مناقبهم الادبية وآثارهم العلمية على نوع من الاستيفاء فمن تأمل بعين الانصاف في علو كعبهم في العلوم والآداب ومعرفة متعددة اللغات ومعاناتهم النظم والنثر الى حد الاستيلاء على الغاية مع استغراق اوقاتهم بالفتوحات وتدبير الملك علم ان همهم العلية لم تكن لترضى بسحة الفتوح دون التحلي بحلية العلم وان عروش سلطانهم موشاة بطراز الادب الرفيع مما يعز على عترة ملكية غيرهم و يندر ان يتسق بتلك الدرجة لغير فروع هذه الشجرة المباركة ادام الله ظلها

صوفر شكيب ارسلان